مؤتة للبحوث والدراسات، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد السادس والثلاثون، العدد الرابع، 2021.
http: 10.35682/0062-036-004-007

موقف نيابة الرحبة من الغزو المغولي والصراعات الداخلية أثناء العصر المملوكي (658-922هـ/ 1260-1516م)

مبارك محمد الطراونه*

عدنان محمد عبيدات

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى مناقشة موقف نيابة الرحبة من الخطر المغولي والصراعات المملوكية الداخلية، فقد فرض موقعها الجغرافي الفاصل بين بلاد الشام والعراق على السلطة المملوكية الاهتمام بها كثغر إسلامي والعمل على تحصينها وشحنها بالمقاتلة وإمدادها بالجيوش من النيابات المجاورة لتقوم بدورها كثغر حدودي يقع في أقصى الشرق لمواجهة الهجمات المغولية المتكررة، وملاحقة أعداء السلطان من الثوار والخارجين عن الطاعة. وركّزت الدراسة على التعريف بموقع مدينة الرحبة كثغر إسلامي شُكّلت فيه نيابة مستقلة منذ أن انتقلت تبعيتها للسلطان المملوكي في عهد الظاهر بيبرس، وأبرزت الدراسة دور نوابها وأهلها في صد الهجمات المغولية المتكررة على بلاد الشام، والوقوف في وجه حركات العصيان التي قام بها بعض نواب النيابات الشامية، وأمراء القبائل البدوية المتنازعون في الإمرة، وأوضحت الدراسة أثر تلك النزعات التي اتخذت من أراضي النيابة مسرحا لعملياتها العسكرية على أوضاع النيابة من كافة النواحي.

الكلمات الدالة: الرحبة، نيابة، مغول، مماليك، ثغر، إمرة العرب، آل فضل.

* كلية العلوم والآداب، جامعة العلوم الإسلامية، الأردن.

تاريخ تقديم البحث: 2020/1/7م. تاريخ قبول البحث: 2020/6/8 م .

© جميع حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، المملكة الأردنية الهاشمية، 2021 م.

The Attitude of Al-Rahba Province from Mongol Invasion and Internal Mamluk Conflicts in the Mamluk Era (658-922 H/1260-1516 AD)

Mubarak Mohammad Al- tarawneh

Adnan Mohammad Obeidat

Abstract

This study aims at investigating the role of Al-Rahbah Islamic Province and its position from the danger of the Mongol in the Thaghr in the Mamluk political history. Because of the geographical location of Al-Rahbah Islamic Province, the Mamluk authority was very interested in it; therefore, they fortified it and urged it with fight, supplying it with military campaigns from nearby states, in order to perform its role as a boundary position located in the east to fight Moghuls. The article focused on identifying the way Al-Rahbah Islamic Province was adhered to the Mamluk Sultan, and the role of its people and representatives in facing the outside dangers exemplified by standing against the Moghuls' attacks on the Levant Province (Bilad Al-Sham). The article showed the attitude of Al-Rahbah Islamic Province towards movements of upheaval performed by some of the representatives of Al-Sham Province against the Mamluk Sultanates. The article also revealed that the State territories were affected by the tribal conflicts among the families of Al-Fadhl tribe who were competing on the Arab leadership.

Keywords:Al-Rahbah, Province, Mongol, Thaghr, Mamluk, Arab leadership, AL- Al

مؤتة للبحوث والدراسات، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد السادس والثلاثون، العدد الرابع، 2021.
http: 10.35682/0062-036-004-007

التمهيد:

استمدّت مدينة الرحبة اسمها من رحبة الشّام (Mo'alefeen, 1992)، وتقع أراضيها إلى الجنوب الشرقي من دير الزور بحوالي 45كم، وعلى بعد 5 كم إلى الغرب من نهر الفرات أسفل قرقيسيا بالقرب من مصب نهر الخابور. (Al-Dawadari Al-Mansouri, 1998, Al-Baghdadi, 1954, Ibn al Faqeeh, 1996) ونظراً لموقعها الحدوديّ بين بلاد الشّام والعراق فقد أولاها الأيوبيون أثناء حكمهم لمصر والشام جلّ عنايتهم واهتمامهم، فعمل السلطان صلاح الدين الأيوبي على تحصينها سنة 570هـ /1174م، وأقطعها لابن عمه القاهر محمد بن شيركوه (Al-thahabi, 2004, Abu Shama, 1956 -1962)، لما يتميز به من حنكة ودراية عسكرية وثقة عالية تمكّنه من الوقوف في وجه أعدائه، وأورثها القاهر بعد وفاته في سنة 582هـ/ 1186م لابنه أسد الدين أبو الحارث شيركوه ابن ناصر الدين محمد ابن الملك أسد الدين شيركوه بن شاذي (582– 636هـ/ 1186– 1240م) الملقب بالملك المجاهد (Ibn al-wardi, 1969, Abu al-Fid'a, 1901). والذي بدوره بنى مدينة الرّحبة الجديدة سنة 604هـ/1209م إلى الجنوب من رحبة مالك بن طوق بعد دمارها في زلزال عام 552هـ/1157م (Ibn Al-Qalansi, 1983) ، وقام في العام نفسه بتجديد قلعتها بعد دمارها (Ibn Al-Qalansi, 1983, mo'alefeen,1992) وتحصينها، وشحنها بالمقاتلة، وتزويدها بالمواد الغذائية والأسلحة ؛ لتشكّل خطّاً دفاعياً يقف في وجه غارات العدو المتكرة على أراضي الدولة، (Mo'alefeen,1992, Shaykh al-Rabwa, 1865). ولمتابعة أخبارها والوقوف على مجريات الأحداث فيها وخاصة العسكرية حال حدوثها جعلها الأيوبيون ومن بعدهم المماليك محطة للقوافل، ومنطلقا لمحطات البريد التي تربط بينها وبين مقر السلطان في القاهرة مروراً بمدينة دمشق (Abu al-Fida, 1840). وما أن تُوفّي الملك المجاهد سنة 637هـ/ 1239م ورث أملاكه (Sabt ibn Al-Jawzi, 1968, Ibn wasel, 1975, Al-Qalqashandi, 1985, . Al-Safudi,1998) وتوابعها من بعده ابنه الملك المنصور إبراهيم المتوفى سنة 644هـ/ 1246م ومن بعده آلت إلى ابنه الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن إبراهيم. (Yaqoot al-hamawi, 1977, Ibn, Aybak al Dawadari, 1971, Al-Maqrizi, 1997, Ibn Taghri Baradi, 1992, Al-Hanbalia,1978) وبقيت الرحبة تحت السيادة الأيوبية حتى تمكن الملك المظفر قطز (658–657هـ/1258–1259م) قبيل موقعة عين جالوت في 26 رمضان

سنة 658هـ/ 3 أيلول سنة 1260م من استمالة الملك الأشرف موسى (Al- Uneeni, 1992) للوقوف إلى جانبه في محاربة التتار مقابل أن يقره على حمص والرّحبة وتل باشر(Al- Uneeni, 1992, Ibn, Aybak al Dawadari, 1971). وبذلك خضعت مدينة الرّحبة في عهد ملكها الأشرف موسى للتبعية المملوكية. وبعد مقتل السلطان قطز في 5 ذي القعدة 658هـ/ 26 تشرين أول 1260م، أعلن الملك الأشرف موسى ولاءه للسلطان الظاهر بيبرس، الذي أقرّه على ممتلكاته في حمص ومضافاتها من الرّحبة وتل باشر، وكلفه بمراقبة تحركات المغول من ثغر الرحبة الملاصق للمناطق التي يسيطر عليها المغول (Ibn Taghri Baradi, 1992) إلى الشرق من شاطئ الفرات (Shaykh al-Rabwa, 1865) وبوفاة ملكها الأيوبي الأشرف موسى في يوم الأثنين 14 صفر سنة 662هـ/17 كانون أول 1263م (Ibn Shaddad,1991, Ibn 1976, Ibn katheer, 1986, Al- Khaldoun, 2000, Ibn Abd al- thaher, Hanbali,1986)

انتهت السيادة الأيوبية للمدينة وأرسل السلطان الظاهر بيبرس الأمير بدر الدين بيليك العلائي لاستلامها بعد وفاة الأشرف موسى بسبعة أيام. (Al- Uneeni, 1992, Al-Maqrizi, 1997) وبهذا الإجراء الإداري أصبحت الرّحبة نيابة مستقلة إداريا تتبع مباشرة للسلطان المملوكي في مصر.

كلف الظاهر بيبرس نائبها من قبله بالمحافظة على التنظيمات والترتيبات العسكرية الموروثة من العصر الأيوبي، لتستمر القيام بدورها كثغر إسلامي يرصد تحركات العدو طيلة فترات النزاع المملوكي المغولي؛ فقد وصفها بعض المؤرخين والجغرافيين المعاصرين لتلك الأحداث بأنها ثغر إسلامي تجاه العدو؛ مثل شيخ الربوة(ت:727هـ/1327م) الذي أعتبرها مدينة من مدن الشّام في جهة المشرق على شاطئ الفرات وثغر تجاه العدو (Shaykh al-Rabwa, 1865) وأتفق أبو الفداء (ت: 732هـ/1331م) مع شيخ الربوة بكونها إحدى الثغور الإسلامية حيث يقول: "إنها مدينة على نحو فرسخ من الفرات وهي بلدة صغيرة.... وهي أحد الثغور الإسلامية في زماننا" (Abu al-Fida, 1840, PP, 280-281). ويعد وصفه أكثر قبولا ودقة لقرب مدينة الرّحبة من حدود مملكته حماة، وتعدد زياراته لها ومتابعته أحوالها والدفاع عنها بتكليف من السلطات المملوكية، كما يؤكّد القلقشنديّ (ت:821هـ/ 1418م) بعد مضي أقل من قرن ببضع سنين على وفاة شيخ الربوة ومن بعده أبو الفداء على أنها من مدن الثغور فيقول: "وهي أحد الثغور الإسلامية في زماننا" (Al-Qalqashandi, 1963,PP, 114-115). ولعل مرد ذلك كونها مدينة فاصلة بين أرض العدو

وحدود الدولة المملوكية طيلة فترات الصراع المملوكي مع المغول والذي كانت أراضي مدينة الرحّبة مسرحاً لمعظم المعارك والغزوات التي اجتاح فيها المغول بلاد الشام أثناء تدوين القلقشندي لموسوعته.

ومما يؤكد استقلالية مدينة الرحبة إداريا عن غيرها من النيابات الشامية وخصوصا نيابتي دمشق وحمص، ما أوضحه ابن فضل الله (ت: 747هـ/ 1346م) بعد عقدين من الزمن على وفاة شيخ الربوة فيقول: "وبهذه الصّفقة (الشرقية) مدينة الرّحبة على الفرات وبها قلعة ونيابة وفيها بحريّة وخيّالة وكشّافة وطوائف من المستخدمين" (Ibn Fadlullah Al- Omari, 1992, P,257) وذكر القلقشندي بعد مضي أكثر من سبعة عقود على وفاة ابن فضل الله العمري على استمرارية استقلالية نيابة الرحبة عن غيرها، مكررا ما كتبه ابن فضل الله العمري ومضيفا ما أستجد عليها في زمانه فيقول بأن ورسم المكاتبة لنائبها: "صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي وتعريفه نائب الرّحبة أو النائب بالرّحبة" (Al-Qalqashandi, 1963). ولم تزل إمرتها طبلخانة بمرسوم شريف من الأبواب الشريفة من الأيام الناصرية ابن قلاوون إلى الآن "(Al-Qalqashandi, 1963,PP,115) . وممّا يؤكّد استقلالية نيابة الرّحبة المراسلات الرسمية التي كانت تتم مباشرة بين نائب الرّحبة والسلطان مباشرة،" (Al-Safudi,1998).

هذا قد بينت بعض الدراسات الحديثة صراحة استقلالية نيابة الرّحبة، وعدم تبعيتها لكلّ من حمص ودمشق، وإقامة نيابة مستقلة إدارياً فيها تتبع السلطان المملوكي مباشرة في مصر (Al-Hiyari,1977, Al-Tarawneh,1996)

ولمّا كانت معظم الدراسات الحديثة مثل "مدينة الرحبة في العصر الإسلامي من خلافة المامون حتى نهاية العصر المملوكي (ق3– 10هـ)"، للباحثة أمينة حسن عبدالرحمن، والكتب التي تعرضت للخطر المغولي مثل كتاب "تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري وحتى القرن الثالث عشر الميلادي" لأحمد عودات وآخرين، وكتاب "جهاد المماليك ضد المغول والصليبين" لعبدالله سعيد الغامدي، وكتاب "المغول في التاريخ" لفؤاد الصياد و "دولة المغول والتتار" لعلي محمد الصلابي وغيرها من الكتب التي تطرقت بصورة غير مباشره عن الغزو المغولي للعالم الإسلامي، التي تناولت الحديث عن مدينة الرحبة لم تتعرض بالتفصيل عن موقف نيابة الرحبة من الأخطار الخارجية والفتن والأضطرابات الداخلية، لذا جاءت هذه الدراسة لتسليط الضوء على موقف أحد النيابات الشامية والتي

كانت تشكل أحد الثغور الإسلامية في الطرف الشرقي من بلاد الشام لمواجه الخطر المغولي والخارجين عن الطاعة من النواب أو أمراء بعض القبائل البدوية.

أولاً: موقف نيابة الرحبة من الغزو المغولي

نظرا لاستمرار هجمات المغول المتكررة على أراضي السلطنة المملوكية فقد كُلّف نائب الرحبة وبعد مباشرته مهام عمله بسنة واحدة أي في سنة 663هـ/ 1264م بنجدة مقدموا حصن قرقيسيا بطرد التتر والأكراد والاستيلاء عليه، فتوجه إليهم مسرعا في منتصف رمضان من العام نفسه وتسلّم الحصن وسيطر على الجسر المقام بالقرب منه واستولى على المراكب النهرية ووسلاسل الحبال (Al-Dawadari Al-Mansouri, 1998). وهو بهذا العمل قام بتنفيذ مهام وظيفته بمتابعة أخبار العدو ورصد تحركاتهم شن الغارات على مواقعهم، وقطع الطريق على رسلهم.

ولأهمية الرحبة كخط دفاع أول في التصدي لهجمات المغول القادمة من الشرق وكشف أخبارهم قبل التوغل في أراضي بلاد الشام فقد أولاها الملك الظاهر بيبرس جلّ اهتمامه وعنايته فعندما علم أثناء إقامته في مدينة صفد سنة 664هـ/1266م بقصد فرقة من التتار مدينة الرحبة توجه مسرعا إلى مدينة دمشق للإشراف على اعداد إلترتيبات الضرورية لتعبئة العساكر المملوكية المعدّة لمحاربتهم، وبالرغم من تأكده من رجوعهم إلى ديارهم، إلّا أنه وتخوفا من عودتهم ثانية، أقام في مدينة دمشق خمسة أيام، تم عاد إلى مدينة صفد (Al-Dawadari Al-Mansouri, 1998, Al-Aini, 1987) ولإدراك المغول أهمية موقع مدينة الرحبة في اجتياح منطقة بلاد الشام والسيطرة عليها قرر بعض قادتهم العمل على تجهيز فرقة من التتار قدّر عددها ما بين ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف جندي للسيطرة على مدينة الرحبة، وما أن علم نائب الرحبة بقدومهم طلب النجدة من السلطان الظاهر بيبرس الذي ترك مكان إقامته في دمشق، وسار على الفور إلى الرحبة سالكا أقصر الطرق لمشاركة عساكر الرحبة في منع دخولهم أراضي النيابة، وبعد مسيرة ثلاثة عشر يوما وصل دار النيابة وأقام فيها مدة من الزمن، رغم علمه وهو في طريقه للرحبة بعودة المغول عنها، وقد شاركت الجيوش المملوكية المرافقة له والمزودة بقوارب ومراكب استعارها السلطان من صيادي مدينة حمص وبمساعدة من أهالي مدينة الرحبة في مطاردة فلول المغول المنهزمة، وقتلوا منهم أعدادا كبيرة وأسروا قرابة المائتين وهم يعبورون نهر الفرات، ولم ينج منهم إلا

القليل. (Ibn Taghri Baradi,1984-1988, Ibn Taghri Baradi, 1992, Ibn, Aybak al Dawadari, 1971, Ibn Abd al- thaher,1976)

وتوقع أهالي مدينة الرحبة أن تكون مدينتهم مستهدفة من قبل قادة المغول مستغلين حالة الفوضى أثناء حكم الملك المنصور قلاوون (678 – 689هـ/ 1279– 1290م) بتمرد نائب الشام وأحد كبار الأمراء المماليك والمتمرد على السلطان قلاوون سنة 677هـ/ 1278م الأمير سنقر الأشقر الذي أعلن نفسه سلطانا في دمشق ولقب نفسه بالكامل لذلك حاربه السلطان(Ibn Tulun, 1956) وبعد إخماد ثورته هرب مستجيرا بأمير العرب الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا(Al-Nuwairi, 1992) في الرحبة واللذين تحالفا على مراسلة قادة المغول وأغروهم بالمساعدة في اجتياح بلاد الشام والسيطرة عليها. وبالفعل استغل قادة المغول اضطراب الأوضاع في البلاد وتوجهوا مسرعين نحو بلاد الشام في أوائل جمادي الآخرة سنة 679هـ/ تشرين أول 1280م، وعندما علم سكان نيابة الرحبة وحلب بقرب وصولهم هربوا خائفين نحو مدينة دمشق كمحطة يقيمون بها وهم في طريقهم نحو الديار المصرية (Ibn Abd al- thaher,1976 , Ibn Abd al- Thaher , 1961, Ibn, Aybak al Dawadari , 1971, Ibn Eias Iyas, 1982-1984, Ibn al- Furat , 1936-1942)

واستمرت الحملات المغولية تتوالى للسيطرة على بلاد الشام سالكة طريق الرحبة، ففي السادس والعشرين من جمادي الآخرة الموافق الثالث والعشرين من تشرين أول من العام نفسه، وصلت مدينة الرحبة فرقة عسكرية من أوائل طلائع جيش المغول يقدّر عددها بثلاثة آلاف فارس وعلى رأسها ملك المغول أبغا، وبعد تأكد السلطان قلاوون من محاصرة قوات الملك أبغا لمدينة الرحبة حرص على مراسلة الأمير سنقر الأشقر ومصالحته؛ نبذاً للفرقة وتوحيداً للكلمة والوقوف صفاً واحداً في وجه الهجمات المغولية، وما أن انتظمت كلمة المسلمين وتوحدت صفوفهم بإعلان سنقر الطاعة للسلطان حتى انطلق الملك المنصور من دمشق بأعداد كبيرة من العساكر المصرية والشامية والتقى مع جيش التتار قرب مشهد خالد بن الوليد في 14 رجب 680هـ/ 30 تشرين أول 1281م في وقعة تحقق النصر فيها للمسلمين عُرفت بوقعة حمص،-(Ibn al- Furat, 1936-1942, Al-dawadari Al- Mansowri, 1987, Al-Maqrizi, 1997, Al-Aini, 1987) ومن حمص عاد السلطان إلى دمشق لاتخاذها قاعدة لإدارة العمليات العسكرية والإشراف على الترتيبات اللازمة لفك الحصار المفروض حول مدينة الرحبة، فأمر بعد وصوله دمشق مباشرة بتشكيل قوتين عسكريتين مؤهلتين

أحداهما لمساعدة جند الرحبة وإجبار أبغا على فك الحصار عن المدينة وقلعتها، والثانية لمشاركة أهالي مدينة الرحبة بملاحقة فرق المغول المهزومة وخاصة المتجهة نحو مدينة سلمية وطردهم من بلاد الشام. ولرفع الروح المعنوية لدى عساكر الرحبة أرسل السلطان بواسطة الحمام الزاجل إلى نائب الرحبة يخبره ويبشره بهزيمة جيوش المغول في وقعة حمص. وما أن وصلت أخبار النصر لملك المغول أبغا وهزيمة عساكره أمر بفك الحصار عن مدينة الرحبة وهرب ومن معه نحو بغداد، فضربت البشائر وأقيمت الأفراح ابتهاجا بالنصر، وفرحا بانتهاء الحصار، (Ibn al- Furat , 1936-1942, Al-dawadari Al-Mansowri, 1987, Al-Maqrizi, 1997, Al-Aini, 1987, Ibn Taghri Baradi, 1992).

وبعد مغادرة أبغا مدينة الرحبة تشتت جيوشه إلى عدة فرق سهلت على الجيش المملوكي مطاردة فلولهم المهزومة بالقتل والأسر ولحق مَنْ نجا منهم بأبغا وهو على مشارف مدينة بغداد بقيادة أخيه منكوتمر (Ibn Taghri Baradi, 1992, Al-Diyar Bakri,1884). ونظراً لعدم توقع أبغا الهزيمة ولشدة وقع نبئها عليه لم يتمالك نفسه وقال غاضباً من أخيه الذي جرح في ساحة المعركة: "لِمَ لا مُتَّ، ولا جيتني مكسوراً " (Ibn, Aybak al Dawadari, 1971,Ibn Al- Furat, 1936-1942, Al- Hamathani, 1983)

وفي بداية سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية (698–707هـ/ 1308–1398م) أغار المغول بقيادة غازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بعد عبورهم نهر الفرات على مدينة الرحبة وهم في طريقهم لغزو بلاد الشام، فاضطرب سكانها وأهالي حمص، وحماة، وحلب، وهرب الجميع إلى مدينة دمشق، ولمّا علم الملك الناصر بهذه الهجمة المغولية أعد حملة عسكرية قوامها عشرون ألفا إلاّ أنها لم تتمكن من ردع القوات الغازية ومنيت بالفشل في وقعة عُرفت بوقعة وادي الخازندار بين حمص وحماه (Ibn yahya, 1986, Al-dawadari Al-Mansowri,1987) والتي أسفرت عن احتلال قوات غازان مدن بلاد الشام الشمالية ونهبها والتوجه نحو مدينة دمشق (Ibn yahya, 1986, Ibn Abi Alfadl, 1911-1912, Ibn Taghri Baradi , 1992)

وبعد مرور أربع سنوات من وقعة الخازندار وتحديداً في 18 رجب سنة 702هـ/ الموافق الثامن من أيار 1303م هاجمت قوة عسكرية من المغول قوامها ثمانون ألف جندي بقيادة غازان جهة الفرات، ووصلت فرقة منهم بقيادة القان غازان نفسه مدينة الرحبة وأراد محاصرتها، ولم يمنعه من ذلك إلا حنكة نائبها علم الدين سنجر الغتمي السياسية، اذ أخذ يلاطف غازان بالحديث الحسن ويتودد إليه

بالإقامات والهدايا والهبات والعطايا وإرسال أبنه للتفاوض معه وأوصاه أن يقول لغازان: "الملك الآن سائر إلى الشام لقصد المدن العظام وهذا بلد سهل المرام فإذا أخذت البلاد التي قدامك وحويت ملك الممالك التي هي أمامك فهذا البلد بين يديك وما يتعسر أمره عليك وخاطبه بهذا أو مثله فاستوقفه عن التعرض إليها ثم إنه رحل ولم يعد يتعرض لها. وليطمئن غازان من اقوال النائب سنجر الغتمي أخذ ابنه رهينة معه إلى المشرق، والذي أخبر بعد عودته بمكاتبة غازان إلى نائب الشام وأهلها يحرضهم ضد السلطان في مصر (Ibn Khaldoun, 2000, Al-Aini, 1987) إلاّ أن العساكر المملوكية المتجمعة قرب حلب والمعدة لصد هذا الهجوم تمكنت من هزيمة المغول قرب حماة، ولشدة فرح السلطان بهزيمة المغول كتب إلى نواب النيابات المملوكية كافة ومنهم نائب الرحبة يخبرهم بالنصر على المغول وطردهم من الشام، فدقت البشائر وأقيمت الاحتفالات فرحا بذلك (Ibn Habib, 1976, Ibn Eias Iyas, 1982-1984,Al- yafi'I, 1997).

لم تثنِ الهزائم التي مني بها المغول عن معاودة الهجوم على بلاد الشام، عن طريق الرحبة فبعد عقد من الزمن من هزيمتهم في حماة وصل التتار مدينة الرحبة بقيادة سلطان المغول محمد بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن جنكيز خان الملقب بخربندا في أوائل رمضان 712هـ/ كانون أول 1312م بمراسلة من النائبين قراسنقر الجوكندار الجركسي المنصوري– الذي اشترك مع غيره من الأمراء في قتل الملك الأشراف وتولى نيابة دمشق واعلن عصيانه سنة 711هـ/ 1311م وقد انتهت حركته بهروبه إلى أمير العرب سليمان بن مهنا في الرحبة ثم رحل إلى خربندا – (Ibn Hejr al- Askalani, 1966 – 1967, Al-Maqrizi, 1997) والأمير الكبير جمال الدين الأفرم –الذي كان واليا على نيابة دمشق عند دخول غازان واحتلاله لها سنة 699هـ/ 1299م– (Ibn Tulun , 1956) اللّذان أطمعاه بالمجيء إلى الرحبة لاعتقادهما بموافقة نائبها الأمير بدر الدين موسى محمد بن أبي بكر الأزكشي الكردي الذي عينه على نيابة الرحبة الأمير جمال الدين أقوش الأفرم عندما نائبا لدمشق وكانت مدة نيابته لها عشر سنوات من 703– 712هـ/ 1303– 1312م (Ibn, Aybak al Dawadari, 1971, Ibn Hejr al- Askalani,1966 – 1967) لهما في تسليم الرحبة للمغول (Abu Al-Fid'a,1901) ونظراً لرفض نائب الرحبة تسليم المدينة للمغول هاجم خربندا المدينة وأشتبك مع أهلها في قتال استمر لمدة خمسة أيام متتالية اقتتلا فيها قتالاً عظيما، ولمّا لم يتمكن خربندا من دخول المدينة فرض عليها حصاراً من سبع حلقات أحاطت

بالمدينة من كل الجهات لمدة تجاوزت العشرين يوما ضربت المدينة أثنائها بالمنجنيق، ودُمّر مسجدها، ودُكّت أسوارها. ولكثرة حلقات الجند المحيطة بالمدينة لم يستطع نائب الرحبة تسريح الحمام الزاجل المحمَّل بالرسائل إلى السلطان يخبره عن أوضاع النيابة ويطلب النجدة، وذلك لأن المغول كانوا يراقبون الحمام الزاجل ويرمونه بالنشاب ويقتلونه بحيث لا يسلم منه طائر. ولم يخفف من وطأة شدة الحصار وطول مدته إلا موقف المغولي المسلم جوبان النوين سيف الدين جوبان بن تلك بن تدارن نائب المملكة القانية والذي كان مناصحا للمسلـمين في الباطن وهو ممن ســـاهموا في عقد الصـــلح بين قاضـــي الرحبة ونائب القان بوســـعيد بن خربندا والمتوفى سنة 728هـ/ 1328م (Ibn Daqmaq, 1986) والمتعاطف مع سكان الرحبة، حيث عمل على رفع معنويات سكان المدينة وحثهم على الصمود وطمأنتهم عن طريق مراســلتهم بواسطة النشـــاب بعد نزع نصـــله والكتابة عليه" لا تخافوا فهؤلاء ما عندهم ما يأكلون". (Ibn Hejr al- Askalani,1966 – 1967, PP,92-93)

وبالفعل اضطر خربندا إلى فك الحصار نتيجة لنفاذ ما لديهم من الغذاء، وموت الكثير من جنده، وغلاء الأسعار، وقلة الأعلاف لدوابه، وتفشي الأمراض بين خيول جنده. (Al-Safudi,1998, Ibn katheer, 1986, Al-Jazri, 1998) وساهم أيضا في فك الحصار الأسلوب الدعوي الذي اتبعه نائب المملكة القانية بالدعوة إلى الصلح رغبة في حقن دماء المسلمين، وذلك بوعظ المنجنيقي الذي كان يقصف أسوار قلعة الرحبة، وردعه من انتهاك حرمة شهر رمضان بالقتل والدمار، إضافة إلى تذكير جوبان لوزير خربندا بأن الإسلام يستوجب عليه مســـؤولية الأخذ بيد الملك، ومنعه من تدمير المدينة، وســـفك دمـــاء أهلها دونمـــا مراعاة لحرمة شهر رمضـــان الفضـــيل، وحثه الوزير بالموافقة على الدخول معه على خَربَندا لإقناعه بالانســـحاب وفك الحصـــار عن المدينة. (Al-Maqrizi, 2000, Ibn Khaldoun, 2000) وقد ساعد جوبان في مسعاه السلمي تلك المشورة التي قدّمها الوزير رشيد الدولة فضل الله بن أبي الخير (Al-Safadi, 1998, Ibn katheer,1986) لأهالي الرحبة برفع السنجق المغولي على القلعة، وإعلان الطاعة، وتذكير خربندا بالإسلام وتقديم الهدايا له وطلب العفو منه بالصفح عنهم، وساهما" جوبان ورشيد الدولة" بعقد الصلح بين خربندا وقاضي الرحبة نجم الدين إسحاق بن اسماعيل أبو القاسم بن حسن بن أبي القاسم المقدادي الكندي الذي نزل وأهدى للملك خمسة رؤوس خيل وعشرة أنواع من الحلوى بالسكر تسمى أباليج (Dahman, 1990) فوافق الملك على طلب الصلح، وقبل الهدايا وأمر برفع الحصار ورجع

إلى بلاده في السادس والعشرين من رمضان من العام نفسه، وترك لأهل الرحبة الكثير من معدات الحرب وعدد من آلات الحصار ومنجنيق وغيرها الكثير من الأسلحة، ففرح سكان الرحبة بذلك وعملوا على إظهار الزينة ودقت البشائر في المدينة إلى يوم عيد الفطر؛ وفي خطبة العيد ذكّر الإمام الناس بما منَّ الله عليهم من رفع الحصار وعودة الأمن في المدينة. (Al-Jazri, 1998Ibn, Aybak al Dawadari, 1971, Ibn Taghri Baradi , 1992)

ومن جهة أخرى فقد كانت الأوضاع في نيابة دمشق مضطربة فقد ظن أهالي مدينة دمشق لتأخر وصول البريد من الرحبة أثناء حصارها أن المدينة سقطت بيد المغول؛ لذلك أرسل نائبها تجريدة عسكرية مهمتها تقصي أخبار الحصار لإعلام السلطان المملوكي القادم من مصر نجدة للرحبة حال وصوله مدينة دمشق وهو في طريقة للرحبة، وما أن وصل السلطان مدينة دمشق، وأثناء تفقده للاستعدادت العسكرية واستعراضه للحملة العسكرية المكلفة بفك الحصار عن الرحبة، وصل مملوك نائب الرحبة على البريد في عصر يوم السادس عشر من شهر رمضان المبارك يبشر برحيل التتار عن المدينة، ويخبر بأن القلعة سالمة، الأمر الذي أفرح السلطان وأدخل السرور على نفسه واصدر مرسومه بضربت البشائر، وشارك بنفسه أهالي دمشق فرحة النصر، ثم قرّر التوجه بعد ذلك من مقر إقامته بدمشق إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج (Al-Dawadari Al-Mansouri, 1998, Al-Maqrizi, 2000, Ibn Khaldoun, 2000)

ونظمت الأشعار في رجوع خربندا عن الرحبة وصمود أهاليها حيث يقول علاء الدين الوادعي:

ما فرّ خربندا عن الرحبة ال.... عظمى إلى أوطانه شوقا

بل خاف من مالكها أنه..... يلبسه من سيفه طوقا .(Al-Safudi,1998,Vol4. PP,314-315)

ولمعاناة أهالي الرحبة من الهجمات المغولية المتكررة، وبطشهم وكثرة مفاسدهم، رفض نائبها في ذي القعدة سنة 795هـ/ أيلول 1393م استقبال أربعين رجلا من رسل تيمورلنك وأمر بإهانتهم (Ibn Qadi Shahbah, 1977) ومنعهم من التوجه إلى مصر لمقابلة السلطان المملوكي لعرض شروط الصلح المتمثلة بإقرار الولاية والاتحاد وحسن الجوار ثم أصدر أوامره بقتلهم. (Ibn Khaldoun , 2004, Ibn Qadi Shahbah, 1977)

ثانياً: موقف الرحبة من الصراعات الداخلية

شهدت بلاد الشام أثناء العهد المملوكي قيام العديد من حركات التمرد والعصيان الداخلية بعضها قام بها بعض نواب النيابات الشامية ضد السلطات المملوكية متذرعين بأحقيتهم في تولى السلطة والبعض الأخر قام بها أمراء القبائل البدوية من القاطنين في أراضي نيابة الرحبة، وقد كانت مواقف نواب النيابات الشامية تتأرجح وفقا لمصالحهم وظروفهم وطبيعة تلك الصراعات. ولمّا كانت نيابة الرّحبة إحدى النيابات الشامية الصغار والبعيدة في أقصى الشرق عن مراكز صنع االقرار السياسي سواء في مصر أو نيابة دمشق، والتي يتطلب الوصول اليها وقتا يمكن العصاة الهروب منها أو التعاون مع أعداء السلطنة من المغول وحثهم وإغرائهم على اجتياح أراضي السلطنة؛ لذا فقد كانت محط أنظار زعماء وقادة حركات التمرد من الأمراء أو النواب ممن كانوا يطمعون في استمالة قادة وأمراء بعض القبائل العربية والتي تقع منازلهم أراضي نيابة الرحبة، والذين كانت ولاءاتهم متأرجحة تجاه حركات التمرد والعصيان، ففي الوقت الذي كان فيه بعض أمراء القبائل يساند السلطان المملوكي ويقف إلى جانبه كان منافسه على الأمرة يدعم ويؤازر الولاة والأمراء الذين كانوا يتزعمون قيادة حركات التمرد والعصيان. ومن الواضح أن قبيلة آل فضل بن ربيعة اضطروا – بحكم موقع منازلهم – إلى توزيع ولائهم بين أطراف النزاعات وفق ما تمليه عليهم مصالحهم، حتى أن بعض فروع عشيرتهم كانت تغّير ولاءها بين الحين والآخر تبعاً للظروف والأحوال، وهذا ما ستعالجه الدارسة.

موقف نواب الرحبة من حركات التمرد والعصيان

كان موقف بعض نواب نيابة الرحبة متذبذبا في التعاون مع قادة حركات التمرد والعصيان أو البقاء على الطاعة ومساندة جيوش السلطان في القضاء على تلك الحركات، فمن الذين رفضوا مشاركة العصاة الملك الأشرف موسى صاحب حمص والرحبة. فعندما أعلن الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق العصيان (Al-Safadi, 1955, Ibn Tulun, 1956) على السلطان الظاهر بيبرس سنة 659هـ/1261م، ونصّب نفسه سلطاناً وتلقَّب بالملك المجاهد، أرسل إلى الملك الأشرف موسى صاحب حمص والرحبة يستميله الدخول في طاعته، فرفض صاحب الرحبة المشاركة خوفاً من غضب الظاهر بيبرس (Ibn Abi Alfadl , 1911-1912, Al-Abbadi, 1986).

وعندما ارتقى السلطان المنصور قلاوون(678– 693هـ/ 1279– 1290م) عرش السلطنة، وخلع الملك العادل سلامش بن بيبرس في ربيع أول – رجب 678هـ/1279م من الحكم خرج الأمير سنقر الأشقر نائب دمشق عن الطاعة وأعلن نفسه سلطانا في دمشق ولقب بالكامل وأرسل إلى نواب النيابات الشامية يستميلهم إليه، فبعد هزيمته أمام عسكر السلطان سنة 679هـ/1280م، وهروبه الى مدينة الرحبة رفض نائبها الأمير موفق الرحبي - (Al-thahabi , 2003, Al-Aini, 1987, Al Maqrizi,2000, Al-Safudi,1998), قبول وساطة صديقه أمير العرب عيسى بن مهنا بتسليم سنقر قلعة الرحبة وإتخاذ المدينة مقرا لإقامته، ونكاية بنائب الرحبة بعدم قبول وساطته عيسى مراسلة سنقر لإيلخان المغول أبغا بن هوكو(683–680هـ/1281–1284م) ووعداه بالمساعدة في الاستيلاء على بلاد الشام.-Al (Al-Maqrizi, 1997, Al- Uneeni, 1992, Al-Dawadari Mansouri, 1998, Ibn al- Furat , 1936-1942)

ومثلما رفض بعض نواب الرحبة المشاركة في حركات التمرد والعصيان، بالمقابل وُجِد من النواب من اقتضت صلة القرابة مشاركته في عصيانه، فعندما قام بيبغا أُرُس نائب حلب سنة 753هـ/1352م بالتحالف مع عدد من نواب النيابات الشامية لخلع السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد بن قلاوون (752– 755هـ/1351– 1354م) وافقه نائب الرّحبة طشتمر القاسميّ (Al-Maqrizi, 1997, Ibn Taqhri Baradi , 1984-1988) لقرابة بينهما، حيث تم القضاء على حركة التمرد هذه وقتل قائدها بيبغا سنة 754هـ/ 1353م وسجن عدد من المشاركين فيها (Ibn Taghri Baradi, 1992 Al-Sakhawi, 1995) هذا ولم تذكر المصادر مصير نائب الرحبة والذي ربما كانت عقوبته القتل أو السجن شأنه شأن بقية غيره من المتمردين.

كما وأثارت سياسة برقوق المنحازة للعنصر الجركسي نار الضغينة لدى العنصر التركي الذي أدرك خطورة تولي الجراكسة مكانهم، فبدأوا يخططون للثورة على برقوق فتحالف يلبغا الناصري ومنطاش الأشرفي ودخل تحت طاعتهما جميع نواب النيابات الشامية باستثناء نائب الكرك (Ibn al- Furat, 1936-1942) ولعل نائب الرحبة الأمير مَلَك والوحيد الذي أستقر في نيابة الرحبة برتبة تقدمة ألف (Ibn al- Fura, 1936-1942, Al- Maqrizi, 1997) من الذين شاركوا في حركة العصيان تلك، وذلك لعزله من قبل السلطان برقوق سنة 791هـ/ 1389م، وإعادة توليته نائباً للرحبة ثانية من قبل السلطان الملك المنصور أمير حاجي بن الأشرف

شعبان (793–791هـ/ 1388– 1389م) بعد استرجاعه لعرش السلطنة (Al-Maqrizi, 1997)، وإنعامه عليه في الثاني من شهر في شعبان الموافق السابع والعشرين من شهر تموز من العام نفسه بتقدمة ألف. (Al-Maqrizi, 1997)

ومما تجدر ملاحظتة ان نيابة الرحبة كانت مسرحا للصراعات المملوكية الداخلية بين السلطة المملوكية والمتمردين الملتجئين إلى الرحبة، مما أدى إلى انعدام الأمن، وانتشار الفوضى، وتدهور الأوضاع الاقتصادية، ففي سنة 711هـ/ 1311م وبعد نجاة الأمير قراسنقر المنصوري (Al-Maqrizi, 1997, Ibn Hejr al- Askalani,1966 - 1967) ، نائب دمشق – الخارج عن الطاعة– من العقوبة التي فرضها السلطان الناصر محمد بن قلاوون على الأمراء الذين شاركوا بمقتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون (689– 693هـ/1290–1293م)، هرب إلى مدينة الرحبة، واستجار بوالدة أمير العرب سليمان بن مهنا التي استضافته وتكفلت بحمايته من الحملة العسكرية التي أُرسلت إلى الرحبة لتأديبه، وما أن عادت التجريدة المملوكية دون أن تتمكن من القبض عليه، غادر قراسنقر الرحبة متوجها إلى خربندا وحسن إليه دخول بلاد الشام وضمن له تسليمها له دون قتال، فأحسن خربندا استقباله ومن معه من الأمراء وأقطعه مدينة مراغة في مقاطعة أذربيجان. (Al-Maqrizi, 1997, Ibn Hejr al- Askalani,1966–1967, Abu al-Fid’a,1901)

وفي الأول من شهر جمادي الأولى سنة 751هـ/ الموافق السابع من تموز 1350م تعرّضت الرحبة إلى هجوم من قبل الثائر نجمة بن عبدالله التركماني الذي استعان بجند من جنود حاكم سنجار، وبمقاتلين من سكان الرحبة ومن قبيلة زبيد الأحلاف (Al-Qalqashandi, 1984) الذين أبعدوا عن الرحبة في العام نفسه، وأغار على مدينة الرحبة، فسفك الدماء وجرح وقتل وسلب وأسر ونهب الأموال والمواشي، ولهول معاناة أهل الرحبة من مفاسده وشروره وطغيانه، أمر السلطان المظفر حسن بن الناصر محمد(752–748هـ/1347–1351م) بإعداد حمله شاركت فيها عساكر كل من دمشق وحلب وحماة للقضاء عليه، وتمكنت تلك الحملة من محاصرته في سنجار في العام نفسه، وإلقاء القبض عليه، وللخلاص من العقوبة تظاهر بإعلان الطاعة فترة قصيرة من الزمن، ثم نقض العهد وعاد إلى ما كان عليه من النهب والقتل والسلب، ولنقضه العهد غدر به صاحب

ماردين وقتله هو وولديه سنة 752هـ/1351م وعلقت رؤوسهم على أبواب مدينة حلب .(Al-Safadi ,1998)

وللتخفيف على أهالي نيابة الرحبة من وطأة انتهاكات وتعديات صاحب آمد وماردين قرايلك وقّع معه الملك الأشرف برسباي سنة 836هـ/ 1453م صلحاً تقرر فيه تعهد قرايلك بعدم التعرض لأراضي نيابة الرحبة وعدم قطع الطريق على الحجاج والتجار وغيرهم من المسافرين (Al -Maqrizi, 1997).

نيابة الرحبة وصراع الزعامات المحلية على الإمرة

تنتشر القبائل العربية البدوية في بلاد الشام، ولكل عشيرة أفخاذها وبطونها، ومنطقة نفوذ تقع تحت سيطرتها، وقد كانت قبيلة آل فضل بن ربيعة الأكثر انتشاراً وعدداً في بلاد الشام مقارنة بغيرها من القبائل الأخرى، وتمتد منازلهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبة .(Ibn Fadlullah Al-Omari, 1992, Al-Qalqashandi, 1963) ونظراً لدورهم المؤثر في الأحداث السياسية في الدولة المملوكية ربطت إمارة العرب بالسلطان المملوكي مباشرة، Ibn Khateeb al- Nasiriya , (2010, Ayoub, 1991) وذلك لكسب ودّ هذه القبائل والاستفادة منها في المحافظة على طرق المواصلات والبريد والحاج والتجارة، والوقوف إلى جانبها في الحملات العسكرية وتزويدها بالخيول والجمال .(Al-Hiyari, 1977)

كانت مواقف القبائل العربية في نيابة الرحبة من السلطات المملوكية متذبذبة بين القبول بالطاعة أو التمرد والعصيان وفقاً لمصالحهم وظروفهم. فمن خلال استعراض المصادر والمراجع المتوفرة التي تبحث في الشأن المملوكي نجد أنَّ موقف قبيلة آل فضل من الأحداث التاريخية في نيابة الرحبة كانت على النحو الآتي:

أدى التنافس بين أمراء آل فضل على تولي الإمرة إلى إلحاق الضرر في أراضي نيابة الرحبة التي كانت ساحة للمنازعات القبلية، ومسرحا للمناحرات العشائرية، وملجأً للهاربين من الخارجين عن الطاعة، والمهزومين من أبناء قبيلة آل فضل، فبعد تأييد الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا للأمير سنقر الأشقر في حركة عصيانه، واستضافه عنده في بيوته التي بالرحبة عزله السلطان المنصور قلاوون سنة 679هـ/ 1280م، وأعاده في العام التالي بعد المصالحة بين السلطان والأمير سنقر،

ووقوفهما – سنقر وعيسى– إلى جانب السلطان في معركة حمص سنة 680هـ/ 1281م. (Al-Uneeni, 1992, Ibn Taqhri Baradi, 1984-1988, Ibn al- Furat , 1936-1942) كما وأثار قرار السلطان الملك الناصر غضب الأمير حسام الدين عيسى بن مهنا (Al-Nuwairi, 1992, Ibn Hejr al- Askalani,1966 – 1967) وعربانه فاعلنوا العصيان وتحالفوا مع المغول وأمتنعوا عن تقديم المساعدة للتجاريد المملوكية المعدة لمحاربتهم، وعملوا على إيواء الأمراء المماليك الخارجين عن الطاعة وتمادوا في إثارة الشغب ونشر الفوضى لازعاج السلطات المملوكية، الأمر الذي أجبر الملك الناصر بتكليف الأمير سيف الدين قجليس (Al-Safadi ,1998) لما يتصف به من قسوة بقيادة العسكر الشامي وعربان الطاعة بتتبع آل مهنا، وطردهم من أراضي الرحبة، فهربوا إلى ما وراء نهر الفرات. وتحسباً لغدرهم أقام الأمير سيف الدين قجليس في الرحبة مدة من الزمن حتى نضجت ثمارها وجمعت مغلاتها وخزّنت في القلعة، ورجع منها إلى سلمية (Ibn Taqhri Baradi, 1984-1988, Abu al-Fid'a,1901).

ولحفظ زروع الرحبة من النهب والحرق والرعي الجائر من قبل عربان الأمير مهنا أمر السلطان الناصر سنة 726هـ/ 1325م صاحب مملكة حماة المؤرخ أبو الفداء بإرسال قوة عسكرية من قبله لردعهم وطردهم من أراضي النيابة، وتنفيذاً لأوامر السلطان توجهت عساكر صاحب حماة وأقامت قرابة الشهرين والنصف في مدينة الرحبة ثم عادوا إلى حماة. (Abu Al-Fid'a,1901) وللحفاظ على أراضي نيابة الرحبة مستقرة آمنة، وحمايتها من تعديات العربان قبل الملك الناصر اعتذار الأمير مهنا ودخوله في طاعته، وتأكيداً من السلطان بقبول طاعته استمالته وعربانه وأقطعهم سنة 734هـ/ 1333م قرى من قرى نيابة الرحبة. (Al-Jazri, 1998, Al- Yusufi, 1986, Ibn katheer,1986)

ولتجنب أراضي الرحبة الدّمار والخراب، وللحفاظ على عهود إمرة العرب استجاب السلطان المملوكي في محرم سنة 751هـ/ الموافق 11 أذار 1351م لمطلب زعيم عشيرة آل فضل وملكها الأمير حيار (Ibn Taqhri Baradi, 1984-1988) بعزل نائب الرحبة الأمير أزدمر النوري (Ibn Aybak al Dawadari, 1971, Ibn Hejr al- Askalani,1966–1967) لرفضه التعاون مع الأمير حيار بن نعير والمتمنع عن تسليم الهاربين أمام عسكر الأمير حيار من العربان الخارجين عن الطاعة واللاجئين في الرحبة. (Al- Muhammad, 2004) ولعدم موافقة

السلطان الملك الناصر توليته إمرة العرب للأمير فياض بن مهنا بن عيسى بن مهنا (Al-Safudi, 1998) اضطربت الأوضاع في أراضي النيابة، وانعدم الأمن، وعمَّت الفوضى، وانقطعت الطرقات، وانتشر الفساد، وكثرة تعديات العربان على الفلاحين والتجار، ولم تتمكن العساكر المملوكية الموجودة بأرض الرحبة من القاء القبض على الأمير فياض لتوغله داخل الأراضي العراقية، وبقاءه فيها حتى وفاته سنة761هـ/1360م. (Ibn Qadi Shahbah, 1977, Ibn katheer,1986)

اتخذ العصاه والمتمردون من أمراء العرب المعزولين عن الإمرة من أراضي نيابة الرحبة مكاناً للنهب والتدّمير ومنطلقا لمواجهة التجاريد العسكرية المملوكية المعدة لتأديبهم؛ ففي السابع من شعبان سنة 764هـ/ الموافق 22 أيار1363م، تمكن الأمير حيار بن مهنا (Ibn Hejr al-Askalani,1966–1967) المعزول عن الإمرة والمتمركز في الرحبة من اعتراض التجريدة المملوكية المعدة لمحاربته بقيادة نائب دمشق وهزيمتها وجرح وقتل العديد من أفرادها ونهب أثقالهم، ثأرا لزج ابنه في السجن بمرسوم من السلطان الأشرف شعبان بن الحسين بن الناصر محمد(764هـ-778هـ/1362-1276م). (Ibn Qadi Shahbah, 1977, Ibn katheer,1986)

كما وكانت أراضي الرحبة مستباحة بالنهب ومستهدفة بأثارة القلاقل وقاعدة لإثارة الشغب على السلطات المملوكية من قبل أمراء القبائل البدوية من آل فضل المتنازعين على الإمرة، فقد أدى تمادي الأمير نعير بن حيار (Al-Sakhawi,1992, Al-Sakhawi,1995, Ibn Taghri Baradi, 1990) في طغيانه وعصيانه للأوامر المملوكية ورفضه تنفيذ أوامر السلطان برقوق بقبول قرار العزل وتوليته الإمرة لابن عمه الأمير سليمان بن عنقاء (Ibn Hejr al- Askalani, Ibn al – Sirafi, 1976) 1967-1972 إلى إثارة الفتنة بين أبناء البيت الواحد من أبناء العمومة والتي تطورت إلى معركة بالقرب من الرحبة سنة 800هـ/1397م أسفرت عن مقتل الأمير سليمان وعدد من أتباعه وتولية أخوه محمد بن عنقاء (Ibn Hejr al- Askalani, 1967-1972, Al- Maqrizi, 2002, Ibn Qadi Shahbah, 1977) كما عانت الرحبة كثيراً من تمرد آل فضل وعصيانهم ولم يقوموا بالمهام الموكلة إليهم فتركوا بلاد نيابة الرحبة عرضة لقطاع الطرق،

الأمـــر الـذي دفـع نائـب الرحبـة سـنة 802هـ/1399م طلـب المسـاعدة مـن نائـب دمشـق للقبض عليهم. (Ibn Hejr Al- Askalani, 1967-1972)

وخـلال فترة الصراع على السلطة بين السلطان الناصر فرج بن برقوق والأمراء أبو الفرج جكم الظاهري (Al-Sakhawi,1992) وشيخ المحمودي (Al-Sakhawi,1992) استغل أولاد الأمير نعير حالة تدهور الأوضاع السياسية واستولوا على الكثير من الحصون والقلاع، وجعلوا من الرحبة قاعدة وساحة لعملياتهم العسكرية، ولخشية قادة حركات التمرد والعصيان من اسنفحال أمرهم توجه الأمير شيخ المحمودي نائب حلب وحلفائه سنة 814هـ/1411م لمحاربة الأمير العجل بن نعير (Al-Sakhawi,,1992) في الرحبة (Al -Maqrizi, 1997).

ومـا أن تمكـن شـيخ المحمـــودي (824–815هـ/1412–1421م) مـن الانفـــراد بالســـلطة حتى أمر سنة 818هـ/1415م بعزل الأمـير حســين بن نعير (Al -Maqrizi, 1997, Al-Sakhawi,,1992, Ibn Hejr al- Askalani, 1967-1972) عن إمرة العرب وتوليتها إلى الأمير حديثة بن سيف .(Al -Maqrizi, 1997) واحتجاجا على قرار العزل قام الأمير حسين بن نعير بمحاصرة مدينة الرحبة عشرين يوماً، ورعي زروعها، وأفسد نواحيها، ونهبها وقطع الطرقات، وأثار الفتن وأحرق المدينة، ولم يتمكن الأمير حديثة في بداية توليته الإمرة القضاء على تمرد ابن عمه وأخذ ينتظر الفرصة إلى أن ظفر به في المعركة التي دارت بينهما قرب سلمية في رجب سنة 818هـ/1415م فقتله وبعث برأسه إلى السلطان. (Ibn Hejr al- Askalani, 1967-1972, Al-Maqrizi, 1997) ومـا أن علـم أخـوة الأمير حسين بمشـاركة نائـب الرحبـة الأمير عمـر بـن شهري،(Ibn Hejr al- Askalani, 1967-1972, Al -Maqrizi, 1997) وطائفة من عسكر الشـام وعشـيرها فـي الأول مـن محـرم سـنة 819هـ/ الأول مـن آذار 1816م فـي الحملـة العسـكرية المكلفة للقضاء على تمردهم، حتى قرروا الانسحاب من أراضي الرحبة وتركوها لمنافسهم على الإمرة الأمير حديثه الذي اتخذها قاعدة ومنطلقا لمحاربة عذراء بن علي (Al -Maqrizi, 1997) أحـد أحفـاد الأمير نعير ومطـاردة فلولـه المنهزمـة حتـى ظفـر بهـم وهـزمهم قـرب تـدمر فـي العـام نفسه.(Ibn Hejr al- Askalani, 1967-1972, Al -Maqrizi, 1997) واستمر ابناء الأمير نعير وأحفاده فـي غيِّهم وظلمهم وفسـادهم حتـى تمكن الأمير حديثـة مـن طـردهم وإجبـارهم علـى الإنسحاب من أراضي النيابة في الرابع عشر من ذي الحجة سنة 824هـ/ العشرون من كانون أول

1421م .(Al -Maqrizi, 1997) ولدور الأمير عمر بن شهري نائب الرحبة الداعم للأمير حديثة والمشارك معه في القضاء على الأمير عذراء أخذ الأخير يتحين الفرصة للثأر منه فأحتال عليه وغدر به وحمله معه أسيراً إلى مدينة عانة (Ibn Hejr al- Askalani, 1967-1972, Al -Maqrizi, 1997)

الخاتمة:

توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

اهتم السلاطين المماليك منذ توليتهم مهام السلطنة في مصر القيام بالعديد من الحملات العسكرية واتباع مختلف الأساليب الدبلوماسية والإدارية التي شأنها العمل على توحيد منطقة بلاد الشام ومصر وضمها في دولة واحدة؛ تسهم بوحدتها في تشكيل قوة عسكرية سياسية قادرة على للوقوف في وجه الأخطار الخارجية المتمثلة بالهجمات المغولية المتوحشة والتي كانت تهدد جسم الدولة وكياناتها السياسية في كل من بلاد الشام ومصر. وللوقوف في وجه التهديدات المغولية التي كانت تستهدف السيطرة على الولايات والنيابات التابعة للدولة المملوكية والعمل على تدميرها وصولاً إلى مبتغاهم أراضي مصر، لذلك حرص السلاطين المماليك ومنذ سيطرتهم على السلطة على ضم النيابات الشامية تحت سيطرتهم، وخاصة النيابات الثغرية الحدودية التي على تماس مباشر مع العدو لذلك عملوا على استقلال نيابة الرحبة عن غيرها من النيابات الشامية الأكبر مساحة والأكثر سكانا مثل دمشق وحمص وجعلوا تبعيتها مباشرة مع السلطان المملوكي في القاهرة، وأبقوا على تنظيماتها الإدارية والعسكرية الموروثة من العصر الأيوبي.

حرص السلاطين المماليك على العناية بالرحبة باعتبارها إحدى الحصون لمراقبة أعداء السلطنة المملوكية من الجهة الشرقية، وعملوا على تزويدها بكافة ما تحتاجه من العساكر والكشافة والمستخدمين وإمدادها بالحملات والتجاريد العسكرية من النيابات المجاورة أو من العساكر المصرية والتي غالبا ما تكون بقيادة السلطان نفسه، وذلك لاهمية موقعها كثغر إسلامي في أقصى الشرق تفصل بين منطقة بلاد الشام المملوكية والعراق التي يسيطر عليها عدوهم المغول.

لأهمية موقع مدينة الرحبة الجغرافي والحدودي كانت أول النيابات المستهدفة من قبل قادة المفول أثناء اجتياحهم لبلاد الشام، واتخذها سلاطينهم وقادتهم العسكريون مثل أبغا وارغون قاعدة عسكرية لإقامة عساكرهم ومنطلقاً لعملياتهم العسكرية ومركزاً يتمكنون من خلاله الإشراف على العمليات العسكرية وتوجيهها ومراقبة سير المعارك في كل من حمص وحلب ودمشق وغيرها من المناطق التي كانت تجتاحها جيوشهم.

أسهم موقع مدينة وأراضي نيابة الرحبة الصحراوي والبعيد عن مدينة دمشق والقريب من أرض العدو (المغول) بأن اتخذها العديد من قادة حركات التمرد والعصيان ملجأً يهرعون إليه طلبا للعون والمساعدة من العدو والقبائل البدوية المتذبذة في ولاءاتها. كما واتخذها العصاة والمتمردون من الأمراء المماليك مكانا للتحالف مع المغول وأعداء السلطنة من الزعامات المحلية وشيوخ القبائل البدوية التي تُعد أراضي النيابة مناطق نفوذه وديار تسكنها قبائلهم.

جلب موقع نيابة الرحبة الحدودي على النيابة وسكانها الكثير من ويلات الحروب بانتشار الفوضى والدمار والخراب وتدمير المحاصيل الزراعية ونقص الغذاء وإنتشار الأوبئة والأمراض وانعدام الأمن واستباحت أراضيها التي كانت ساحات للقتال ومسرحا للنزعات الخارجية والصراعات الداخلية.

Reference:

Ibn A. A, Al-mufaddal. (1912). Al-nahj Al-sadeed wal Dur Al-farid. Feema ba'ad Tarikh Ibn Al-ameed, paris .

Ibn E. (Iyas) Abu – albarakat muhammad Ibn Ahmad .(1984). Bada'I Al-zuhor Fee Waqae'e al-duhor , Al-haia'a Al-mesreya al-amaa Lelketab, Al-qahera.

Ibn, A. Al Dawadari, Abu Baker Abdullah. (1971). Kanz Al-durar wa jame'e al ghurar, Al-juz' al thamen wa howa Al-durrah al zakeya fe akhbar al-dawla al turkey, Al-qahera.

Ibn T. Baradi, Abual -Mahasin Jamal al-Din Yusuf.(D.T). Al- nojoum Al- zahera fe molouk Mesr wa al- qahera,. Wezarat Al-thaqafa wa al-ershad al-qawmy, Dar al-kutub, mesr .

Ibn T. Baradi, Abual –Mahasin Jamal al- Din Yusuf.(1988). Al- manhal Al-safi wa Al- mustawfa Ba'd Al-wafi. Al- hai'a al-Mesreya al amma lel ketab al- qahera .

Ibn T. B, Abu al- Mahasin jamal al-Din yusuf. (D.T). mowarde Al- latafa feman wolleya al- khelafa, al- qahera .

Ibn T. B, Abu- daleel Al- shafi Ala al- Manhal al- safi .(1998). Mactba'at Dar al Kutub al Mesreya, al- qahera .

Ibn H. H. bin Omar bin Hassan bin Omar.(1976) .Tathterat al- nabeeh feayam al- Mansour wa baneeh, Dar al- kutub, al- qahera.

Ibn H. al- Askalani, Shehab al- Deen Ahmad ibn Ali.(1976). Al- Durar al- Kamena Fe A'aian al-me'a al-thamena. Dar al- kutub al-hadeetha, al- qahera .

Ibn H. al- Askalani, Ahmad Ibn Ali.(1977). Anba'a Al-Ghamr be Abna'a Al-omr. Daera Al-maaref Al-Othmaneya , Haidar Abad al-Dakn 1387-1388/1967-1968, al-qahera .

Ibn H, Abu al- Qasim Muhammad al- Baghdadi.(1934). Surat al- ard . Dar Sader , Avest Leiden, Beirut .

Ibn K. al- Nasiriyah, Ala'a ALDIN. al- Durr Al- Muntakhab fe Takmelat Tareekh Halab. Dar al- Awqat al- Islamya fe Halab number (1212.H.)

Ibn k. Abu al- Abbas Ahmad Ibn Muhammad .(1972). wafeyat al- A'ayan wa anba'a al-zaman .Dar Sader Beirut .

Ibn K. Abdulrahman bin Muhammad .(2000). Al-ebar wa Dewan al-mobtada'a wa al- khabar fe ayam al- arab wa al- ajam wa al-barbar wa man asarahom men thawi al- sultan al- akbar . Dar Al-Fikr, Beirut.

Ibn K. A. bin Muhammad. (2004). Rehat Ibn Khaldoun, Dar al-Kutub al-Elmeya, Beiruit.

Ibn D. Ibrahim bin Muhammad bin Idmer al-Alai'e.(1986). al- Jawhar Al- thamein Fe Serat Kholafa'a wa al- Salaten , al- Saudi Arabia .

Ibn S. B. al- Din yusuf bin Rafi'e .(1964). Al-Nawader al- Sultaneya wa al- Mahasen al- yusufiyah. Dar al- al Kutub al Mesreya, al-qahera.

Ibn S. E. Muhammad ibn Ali ibn Ibrahim .(1991). al- A'alaq al- khatera fe Thekr Omara'a al-Sham wa al- Jazeerah , Demachq .

Ibn S. M. ibn Muhammad .(1963). al-Durra al-Mudee'a Fe Al dawlah Ahthaheria, .California, Berkaley.

Ibn -al – S. A. ibn Dawood .(1976). Nozahat al- Nofous wa al-Abdan fe tawareekh al- zaman, Dar al- Kutub, mesr .

Ibn T. S. al- Din ibn Muhammad .(1956). A'alam al-Warah beman woleyya naeba'a men al- atrak be Demashq al- Sham al- Kabrah. Dar al- fekr, Demashq .

Ibn Abd al- thaher, Muhyi al- Din. (1976). al- Rawd al- zaher fe Seerat al- malek al- khuwaiter. al- Reyad

Ibn Abd al- Thaher, Muhyi al- Din. (1961). Tashreef al- Ayam wa al-Osour fe seerat al- malek al- Mansour. al- qahera .

Ibn al- Abri, Abu al- Faraj Yohana Gregoris. (1992). Tareekh Mokhtasar al- Duwal, Dar al- shrouq, Beiruit .

Ibn Al- Adim, Omar ibn Ahmad ibn Hibat Allah. (1988). Bughyat Al-talap Fi tarikh mamlakat halap. Demashq .

Ibn al- Furat, Naser al- Din Muhammad bin Abdulrahim . (1936-1942). Tareekh al- Duwal wa al- M.olouk . Beirut.

Ibn F. Al- Omari, A. ibn Yahya .(1992). al-Ta'areef Belmostalah Al-shareef. Mu'tah, Al- karak.

Ibn al- F, Abu Abdullah Ahmad ibn Muhammad ibn Ishaq al-Hamathany .(1996). Al-buldan.Beirut .

Ibn Q. S, Taqi al-Din Ahmad. (1977). Tareeth Ibn Qadi Shahbah C3 edited Adnan Darwish, al-Ma'ahad al-Elme al-Faransi lel derasat al-arabeia Demashq.

Ibn Al-Qalansi, H. ibn Asad ibn Ali ibn Muhammad. (1983). Tareekh Demashq., Dar Hassan, Demashq.

Ibn katheer, Abu al-Fida'a Ismail ibn Omar.(1986). Al-Bedaya wa Al-Nehaya fe al-Tareekh . Dar al-Fiker, Beirut .

Ibn Mr, Abu al-Fadl Muhammad ibn Makram ibn Ali.(1986). Lesan Al,Arab . Dar Sader, Beirut .

Ibn N. al-Hamawi, Muhammad ibn Ali. (1981). Al-Tareekh al-Mansouri, Talkhees al-kashf wa al-Bayan fe Hawadeth al-Zaman. Demashq .

Ibn w, J. al-Din Muhammad ibn Salem. (1975). Mufarrej al-Koroub fe Akhbar Bani Ayoub. Dar al-kutub wa al-Watheq al-Qawmeyam, Mesr .

Ibn al-wardi, Zein al-Din Omar ibn Muzaffar. (1969). Tutamat Al mukhtasir Fi tarikh Albashar. al-Najaf.

Ibn y, S. (1986). Tareekh.Wa howa akhbar al-salaf fe thurey al Buhtr bin Ali Ameer al-arab, Dar al-Mashreq. Beirut.

Abu S, S. alddin Abdulrahman ibn Ismail. (1956-1962). ketab Al-Rawdatain fe akhbar al-dawlatain al-noreya wa al-salateya, edited. al-qahera.

Abu al-Fid'a, al-malik al-moayyad, Imad al-Din Ismail. (1907). al-Mokhtasar fe akhbar al-bashar. Al-qahera.

Abu al-Fida, Imad al-Din Ismail Muhammad ibn Omar.(1940). Taqweem al-buldan.Beirut.

Al-Estakhrey, Abu Ishaq Ibrahim ibn Muhammad.(2004). Al-masalek wa Al-mamalek. Dar Sader, Beirut .

Al-Baghdadi, Safi al-Din Abd al-Mu'min.(1954). Marased al-Attela'a fe asma'a al-Amkenah wa al-Beqa'a. Al-Qahera .

Al-Jazri, S. al-Din Abu Abdullah Muhammad ibn Ibrahim ibn Abi Bakr.(1958). Tareekh Hawadeth al-zaman wa anbaeh wa wafeyat al-akaber wa al-a'ayan men abna'eh. Beirut .

Al-Hanbali, A. ibn Ibrahim.(1978). Shefa'a al'qoloub fe Manaqeb Bani Ayoub.Baghdead .

Al-Hanbali, Abu al-Falah Abd al-Hayy Ahmad ibn Muhammad ibn al-amad.(1986) Shatharat al-Thahab fe Akhbar men Thahab . Dar al-kather elmeyya, Beirut.

Al-Dawadari Al-Mansouri, Baybars.(1998). Zubdat al-Fekrah fe tareekh al-hejrah edited Donald s. Beirut .

Al-dawadari Al-Mansowri, Baybours.(1987). al-Tuhfah al-moloukeya fe al-Dawla al-Turkiya, Tareekh al-Mamalik al-bahreya fe al-fatrab men 648-711. Al-Dar al-Masreya al-lub naneya .

Al-Diyar B, Hussein ibn Muhammad ibn al-Hassan. (1884) Tareekh Al-Khamees fe Ahwal Anfas al-Nafees .Dar Sader, Beirut.

Al-thahabi, Shams al-Din Abu-Abullah Muhammad ibn Ahmad ibn Othman ibn Qaimaz, (2003) Tareekh al-Islam wa wafaiat al-mashaheer wa al-a'alam. Dar al-Gharb al-Islami, Beirut .

Sabt ibn Al-Jawzi, Shams al-Din Abi Almuthaffar ibn Qazaweghly. (1968). Marat Al-zaman fe Tareekh Al-zaman. Ankara .

Al-Sakhawi, M. ibn Abdrlrahman .(1995). Wajeez Al-kalam fe Al-Thil ala Duwal Al-Islam .Beirut .

Al-Sakawi, M. ibn Abdulrahman.(1992) Al-Do'oe Al-lame'e Le Al-Qarn Al-tase'e.Dar al-Jil. Beirut .

Al-Sakhawi, M. ibn Abdulrahman .(1995). Al-Thail Ala Duwal Al-Islam. Al-Resala. Beirut.

Shaykh al-Rabwa,Shams al-Din Muhammad ibn Talib al-Ansari.(1865). Nukhbat Al-Dahr fe Ajaeb Al-Bar wa Al-Bahr, Petersburg .

Al-Safudi, S. al-Din Khalil ibn Aibek ibn Abdullah . (1998). Al-wafi Belwafiyat. Beirut .

Al-Safadi, S. al-Din Khalilibn Aibek ibn Abdullah.(1998). Aayan Al-Asr wa A'awan al-nasr. Dar Al-Fekr Al-Moaser, Beirut.

Al-Safadi, S. al-Din khalil ibn Aibek ibn Abdullah.(1955) Omara'a Demasq fe Al-Islam.Dimashq.

Al-A, Badr al-Din Mahmoud.(1987). Aqd Al-Juman fe Tareekh Ahl al-zaman . Al-Qahera.

Al-Q, Abu Al-Abbas Ahmad.(1985). Ma'ather Al-anaqa fe Ma,alem al-khelafa. Al-Kuwait .

Al-Qalqashandi, Abu al-abbas Ahmad.(1984) Nehayat al-Arb fe Ma'arefat Ansab Al-Arab.Dar Al-kutub al-Elmeia. Beirut .

Al-Qalqashandi, Abu-alAbaas Ahmad.(1963). Subh al-A'sha fe senae't Al-Ensha .Al-Qahera.

Majhoul (mansoub le Ibn al-Foti). (1932) Al-Hawadeth Al-jame'a wa Al-tajarub Al-Nafe'a fe Al-me'a al-sabe'a .Baghdad .

Mujair al-Din al-Hanbali, Abdulrahman ibn Muhammad Al-Alimi.(1973). Al-Ons al-Jalil be Tarekh Al-Quds wa Al-khalil .Amman .

Al-Maqrizi, A. ibn Ali. (1997). Al-Solouk le ma'arefal-Duwal Al-moloul .Beirut .

Al-Maqrizi, A. ibn Ali.(2000). Al-thahab Al-masbouk fe Thekr men Haj men al-khulafa'a al-molouk . Al-Qahera .

Al-Maqrizi, A. ibn Ali.(2002). Durar Al-Oquod Al-Fareeda Fe Tarajum Al-a'ayan al-mofeeda.Beirut.

Al-Nuwairi, s. al-Din Ahmad ibn abdulWahab.(1992). nehayet Al-arb Fe Funon Al- Adab. Al-Haia'a Al-mesreya Al-amma lel ketab.Mesr .

Al- Hamathani, R. Al-Din Fadlullah.(1983). Jame'e Al-tawareekh, Tareekh al-mongol. Al-Qahera .

Al- yafi'I , Abu Muhammad Afif al- Din Abdullah ibn Asaad ibn Ali ibn Suleiman.(1997). Mera'at , al- Jenan wa Ebrat at Yaqthan fe Ma'arefat ma you'tabar men Hawadeth al- zaman, . Beirut.

Yaqoot al- hamawi, Shhab Al-Din Abu – Abdullah.(1977) Moa'jam Al-buldan. Dar Sader Beirut .

Al- Yusufi, M. ibn Muhammad ibn Yahya.(1986) Nuzhat Al-Nazer fe seerat al- malek al- Naser. Beirut.

Al- Uneeni, Q. al- Din Abu al- Fath Musa ibn Muhammad .(1992). Thail mera't al- zaman, Dar al- kitab al-Islami . Al- Qahera .

Ayoub, A. (1989). Al-Rastan, Demashaq.

Al-Hiyari, M. (1977). Al-emarah Al-Taeia fe belad Al-Sham. Amman.

Dahman, M.(1990). Mo'ajam al-alfath al-tareekhya fe al-masder al-mamlouky. Dar al-Fekr .Demashq .

Suror, M. J. (1947). Dawlat Bani Qalawoon fe Mesr .Dar al-Fekr. Al-Qahera

Al-Tarawneh, M. M. (1996).Nayabat Hems fe al-ahd al-mamlouky . Mu'tah

Al-Abbadi, A. M. (1986). Qeyam dawlat al-mamaleek al-ola fe mesr wa al-sham. Dar al-Nahda al-Arabiya.Beirut .

Al-Ghazi, K. (1419). Nahr al-Zahab, Dar al-Qalam Halab.

Majid, Abdel-Moneim.(1966). al- tareekh al-seyasy lel dawla al-arabiya asr al-kholafa'a al-rashedin . Maktabat al-Jame'a al-arabeya. Beirut.

Maalouf, L. (1956). Al-monjed fe al-lugha wa al-adab wa al-a'alam a. Beirut.

Mo'ale feen. (1992). al-mo'ajam al-joghraphy lel –qutr al- Syria.

Al-Yozbaki,Tawfiq Sultan.(1979). Al-thugour wa dawruha al-askary wa al-hadary, Almousal.Magazines and Periodicals

Al- M. A. ibn S, Emaret al-Fadl al seyasy fe belad al-sham ebban al-asr al-mamlouky,Majalat Jame'at Umm Al-Qura le oloum al-sharee'a wa allugha al-arabya wa adaboha C17 , p29 1425,pp 535 -452.